د . ممدوح حقي

مؤسسات التعريب ومنجزاتها

العقبات الحقيقية والمصطنعة في طريق التعريب

قضيت خلال هذا الصيف قرابة شهرين في القاهرة ، مشاركا في ندوة علمية دعت اليها المنظمة العربية للتربية والثقافةوالعلوم، للنظر في المعاجم العلمية الستة التي وضعها مكتب تنسيقالتعريب في الرباط ، وهي : الكيمياء ، الفيزياء ،الرياضيات، الجيولوجيا ، الحيوان ، النبات . وقد عكف على دراسة كل معجم علماء متخصصون من البلاد العربية ، جلهم من كبار اساتذة الجامعات ، اعادوا النظر فيما اتفق عليه بمؤتمر الجزائر من مصطلحات ، وحققوها والقوا عليها النظرة الاخيرة قبل دفعها الى المطبعة لتخرج ـ باذن الله تعالى ـ معجما علميا متكاملا للتعليم العام في البلاد العربية .

ولقد افدت من هذه التجربة كثيرا كما افدت قبلها من مؤتمر الجزائر الذي انعقد في ديسمبر من العام الماضي (١٩٧٣) للنظر في توحيد المصطلحات العلمية ، هذا بالاضافة الى خبرة طويلة في الترجمة والتعريب ، اخرها بضع سنوات دسمة في المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط بصفتي كبيرا للخبراء ومشاركا في وضع المعاجم العلمية والانسانية ، وحصلت في اخر المطاف على اراء اخواني العلماء المتخصصين بندوة القاهرة ومؤتمر الجزائر وما دارت حوله مناقشتنا ، وادركت موضع الداء الحقيقي ، وسأنثر حقيقه ذلك كله امامكم بمنتهى الايجاز ، لتروا رأيكم وتقرروا بعد ذلك امرا وتضعوا خطة حكيمة ننفق على تنفيذها في الوطن العربي بأجمعه ، ونوحد جهودنا في الترجمة على اصول ثابتة نخدم بها الفكر العربي خدمة خالصة لا عوج فيها ولا امتا .

نحن لا نشك في ان الغرب قد تقدمنا خلال العصر الحاضر تقدما واضحا جدا ، وان علينا ـ اذا اردنا الدخول في حومة الحضارة الحديثة ـ ان نتتبع خطاه ، ونمشي على اثاره ونفيد من تجاربه ونستخدم مخترعاته ومكتشفاته ، وان نستغل الزمن المتسارع بكل دقيقة من دقائقه لئلا تتسع الشقة ، بيننا وبينه مع الايام ، فلا نستطيع اللحاق به بعد ذلك ابدا . وان نكف عن التبجح بالماضي ، فقولنا : كنا وكنا ، لا يفيدنا شيئا . نعم كان لنا ماض مجيد ، وكانت لغتنا لغة الحضارة خلال القرون الوسطى ، لم تعجز عن ترجمة ما لم يكن لها به علم من قبل ، واثار علمائنا شاهدة بذلك يكفي ان نذكر منهم ال بختيشوع وابن ماسويه وحنين بن اسحاق والكندي والفارابي وعيسى بن يحي وثابت بن قرة والرازي وابن سينا وجابر بن حيان والزهراوي وابن جزلة وابن النفيس وابن زهر وابن رشد وابن الطفيل وابن حزم ... وسواهم كثيرا جدا مما لا يمكن احصاؤه ، ولكن هل يكفي التفاخر بهم وبماضينا اللامع ونحن نعيش في ظلام وتفكك وتاخر ؟ هل يكفي قولنا : بأن اللغة التي لم تعجز عن الترجمة والاقتباس والخلق والابداع في القرون الوسطى ، لن تعجز اليوم عن ملاحقة العلوم ؟ هذا القول قد فانه الزمن ، والتفاخر وحده لا يجدي بل يجب العمل كما عمل اجدادنا الكرام ، والعمل الفردي في هذا العصر ناقص مبتور ، فلا بد من التضافر ، لا بد من التآزر ، لا بد من توحيد المساعي لتتساوق خطواتنا مجتمعين .

ان عصرنا هذا عصر العلوم والتقنيات ،عصر الالةوالذرةوالالكترون فيجب ان نتجه هذا الاتجاه لننسجم مع التصور المعاصر ولا نشذ عنه . كان اكتشاف البخار ثورة فكرية جبارة غيرت كثيرا من المفاهيم . وحرفت طرق التجارة عن مساراتها وخلقت طورا صناعيا جديدا لم نستطع اللحاق به في ابانه ، فاهتبل الغرب هذه الفرصة وسيطر علىالعالم واستغل بلادنا وخيراتنا سنين طويلة ، وما كدنا نستيقظ لنتخلص من براثنه حتى ظهر عصر الكهرباء، ولحق به عصر الالكترون .. وما زال كثير منا يعيشون بافكار القرن التاسع عشر ويعدون انفسهم متقدمين . وما زال كثير من حملة الشهادات العليا يجترون ما تعلموا في معاهدهم ولا يتتبعون التطور المتسارع ،فكانهم جمدوا في مواقعهم لا يحيرون حركة.الزمن يتطاير بهم وهم لايشعرون. بينما ارى على الجانب الاخر اجيالا جديدة تتحرق لاكتساب العلم الجديد وتتمنى لو تقحمت الزمن واحرقت المراحل للوصول الىاهدافها، ولكنها لا تعرف الطريق الصحيح ،فهي تتخبط خبط الاعشى ، يضرب هنا وهناك لعله يصيب هدفا ، وقليلا ما يصيب .

لقد طلع علينا العصر الحاضر بكل هيله وهيلمانه ، ونحن لا نزال نرزح تحت وطأة استعمار وحشي غاشم ، وكأننا طفل امام عملاق . غير ان هذا الوضع لم يبعثنا على اليأس والقنوط ، بل دفعنا دفعا نحو اكتساب اي شيء وبأي طريق وعلى اي وسيلة . ولنعد قليلا الى الوراء ، ولنقف عند مشارف القرن التاسع عشر ، ولنلق بنظرة عجلى على الامة العربية انذاك ثم نسير ، فماذا نرى ؟ الامبراطورية العثمانية تسيطر على الشرق الادنى كله وعلى جزءكبير من شرقي اوروبا ، وتقود هذا العالم المتسع باسم الخلافة الاسلامية، وتقف اوروبا الى الجانب الاخر تدس على هذه الامبراطورية المسلمة وتحاربها سرا وجهرا ، وتحاول تحطيمها بكل وسيلة . ولا بد هنا من الاعتراف بأن العثمانيين لم يفعلوا شيئا لتقدم امبراطوريتهم او

استنقاذها ، بل تقوقعوا حول انفسهم وتركوا الدنيا حولهم تدور كما تهوى . اوروبا تتقدم علميا واقتصاديا وعسكريا ، وهم جامدون يراوحون في اماكنهم على ما كان اجدادهم ويصرخون بأعلى اصواتهم: « يا دشاهم جوق يشاء » ليعش مليكناطويلا ، كأنما الامبراطورية كلها هي الملك وحده ؟ وجاءهم نابليون من اقصى الغرب فهز امبراطوريتهم هزا عنيفا ، ومكن انتصاره للمبدأ السياسي السائد في المحافل السياسية الاوروبية الذي يشبه هذه الامبراطورية بالرجل المريض، ووقفت كل الدول العصرية تنتظر موته لتتقاسم ارثه .

وهزهم محمد علي باشا من بعده مرة ثانية، ودخل ابن زوجته ابراهيم باشا بجيوشه الى لب بلادهم ، وتوقف عند كوتاهية يشرف على عاصمتهم . ولولا اختلاف الدول الاوروبية يومذاك على تقسيم الامبراطورية العثمانية فيما بينهم ، ولولا ضغطهم على ابراهيم باشا وارغامه على التراجع ، لكان هو الوارث الوحيد لها ، ولبنى مكان الامبراطورية العثمانية المزعومة ، امبراطورية عربية يرأسها هذا البطل الليبي ابن زوجة محمد علي باشا الذي انتسب اليه اذ ربي في حجره ، واشتهر بانه ابنه . وكانت الحرب العالمية الاولى ثالثة الاثافي ـ وقد مهدت لها حروب البلقان وليبيا من قبل ـ وصحونا عام ١٩١٨ فاذا الدنيا غير الدنيا ، واذا البادشاه العظيم قزم محبوس في قصر بلدز ، واذا البلاد العربية مجزأة منصبة ، بحكم الانكليز العراق والاردن وفلسطين ومصر وعدن ويسيطرون على سواحل الجزيرة العربية كلها سيطرة مغماة بمعاهدات مع مشائخها وامرائها ،اقل ما يقال فيها : انها ضحك على الذقون .. ويحكم الافرنسيون سوريا ولبنان وتونس والجزائر والمغرب وتحكم ايطاليا ليبيا ، وتحكم اسبانيا مراكز ستراتيجية مهمة في المغرب مثل ميليليا وسبته والصحراء المغربية والساقية الحمراء وتحكم طنجة هيئة دولية من كل هؤلاء لكل دولة في ادارتها نصيب خاص ، واذا وعود لورانس هباء ومكملهون كذاب وعصبة الامم لعبة في ايدي كبار المجرمين والغدارين والعرب يقطعون اصبعهم ندما على وقوفهم الى جانب الحلفاء الخونة (بريطانيا وفرنسا وامريكا) .

لكن هل وقف العرب مكتوفي الايدي امام هذه الفاجعة ؟هل استسلموا الى اليأس والبكاء حسرة وعجزا ؟ كلا ، فقد نفروا الى العمل في كل حومة وقاوموا بثورات دموية رائعة كانت مثلا في البطولة تسطر بحروف من ذهب ، وناوروا مناورات سياسية بارعة جدا نجحوا في بعضها واخفقوا في كثير لقوة اعدائهم وتكالبهم عليهم واتجهوا نحو التعلم يعبون منه عبا سريعا لينقذوا شعبهم من الجهالة الطويلة التي ران عليهم ظلامها طوال العهود العثمانية ،وطفق القادرون ينقلون الى اللغة العربية وما لقنوه في الغرب مجاهدين على كل جبهة لا يكلون ولا يملون حتى انحسرت الحرب العالمية الثانية عن استقلال البلاد العربية متتالية ، وها نحن الان ـ بحمد الله ـ مستقلون في كل قطر ،فهل وصلنا الى ما نبتغيه ، وحططنا على الهدف الذي سرنا نحوه عصورا ؟

عفوكم ايها السادة ، كان لا بد من هذا التمهيد التاريخي لنعرف اين نحن ؟

وماذا علينا ان نعمل ؟ وكيف نخطط لكي لا نضل السبيل . وانا لم آتكم بجديد وانما قربت الامر من ذاكرتكم تطبيقا لقول الله تعالى: « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » .

لنعد الى عهد البطل الليبي ابراهيم باشا، فقد تنبه الى ضعف الامبراطورية العثمانية وتهالكها ، ووطن نفسه ليكون وريثها، وعرف أن عصره عصر علم وتخطيط لا عصر كلام وتخليط، ان الرجل السياسي لا يبني دولة ، فعليه ان يعمل ، فكيف عمل ؟

انه هو الذي استحث والده الروحي محمد علي باشا على ارسال البعوث الى اوروبا للدرس والتعليم ، وليكونوا نواة للدولة الناشئة .

وهو الذي رسم خطة التعريب التي سار عليها خلفاؤه من بعده ، فلما احتل الانكليز مصر عرقلوها ثم منعوها . ولو رجعنا الى عهد التعريب الخديوي لرأينا مؤلفات عربية بعلوم عصرية كالطب والصيدلة والنبات والفلك والجيولوجيا والفيزيا والكيميا والميكانيك والهندسة والهيدروليك والعلوم العسكرية .. وسواها .

فلماذا لا نجد الان مثل هذه الهمة وعلى المستوى الذي نريد ؟ مع اننا جئنا بعدهم بقرن او يزيد ؟.

لعلنا لو استقصينا الاسباب وحاولنا حصرها ، لما وجدناها خارجة عما يلي :

١ ـ قناعة بعضنا بعجز اللغة العربية عن مساوقة العلوم العصرية، واعتقادهم بانها لغة لم تخلق الا للشعر والادب والغناء .

٢ ـ عجز بعض البلاد العربية عن تعريب التعليم والادارة حتى اليوم بسبب تفشي اللغة الاجنبية التي كانت حكومتها مسيطرة عليهم .

٣ ـ واذا عربت بعض البلاد التعليم الابتدائي والثانوي ، فما زال التعليم الجامعي فيها بلغة اجنبية .

٤ ـ ارتباط المصالح المتبادلة ما بين بعض المتنفذين والدولة الاجنبية ارتباطا ماديا وثقافيا ، فقد نشأوا في ظلها وتعلموا بلغتها، وهم يجهلون اللغة العربية او يكادون .

٥ ـ العمل الخارجي الخبيث ، والمخطط تخطيطا شيطانيا لاقناعنا بأن سير العلوم الذي يكاد لا يصدق العقل مدى تسارعه ، لا يترك للغة العربية الجامدة مجالا لمجابهة التطور العالمي حتى ولا امكانية ملاحقته ..

والجواب على ذلك سهل ميسور ، فلغتنا ليست لغة شعر وادب وحسب ، بل هي لغة علوم كذلك . والادلة عليها كثيرة موفورة نقتصر منها على ما يلي :

١ ـ حينما اضطر العرب الى الترجمة لمجابهة حضارة لم يكونوا يعرفون عنها شيئا ، لانت لهم اللغة واعطتهم ما يشتهون فترجموا وعربوا الفلسفة والفيزيقا والارطماطيقا والماطماطيقا والجومطريا وعلم الهيئة والطب .. ولم يقفوا عند حد .

٢ ـ وفي بدء عهد الدولة الخديوية في مصر ،ساروا على الخطة نفسها ، واسعفتهم اللغة بكل ما يريدون . وعندنا من اثارهم في العلوم المختلفة والطب والصيدلة والميكانيك والهيدروليك وسواها.. ما نقف امامه بكل احترام .

٣ ـ وفي فترة استقلال سورية عام ١٩١٨ وهي فترة لم تزد على عامين ، عربت الادارة كما عرب التعليم من ادنى درجاته حتى نهاية التحصيل العالي والجامعة ، ولم يتراجع السوريون عن تعريبهم حتى اليوم ، ولقد حضرت في العام الماضي درسا بالالكترون في الجامعة السورية بدمشق القاه استاذ شاب عرض فيه مصطلحات العلم مترجمة الى اللغة العربية ، مما ادهش زميلي مدير مكتب تنسيق التعريب ـ وكان رفيقي في هذه الزيارة ـ وزاده يقينا بقدرة لغتنا وليونتها.

٤ ـ الاعمال العلمية التي قمنا بها في مكتب تنسيق التعريب اذ وضعنا معاجم علمية كثيرة ،منها التي عرضت في مؤتمر الجزائر وندوة القاهرة ، فوحدت واقرت صيغتها النهائية ، وستكون بين ايديكم بعد بضعة شهور . ومنها معاجم في : البترول والحقوق والادارة والاقتصاد والخرائط والهيدروليك وسواها .. وجميع مصطلحاتها باللغة العربية ترجمة او تعريبا لما في اللغة الانكليزية واللغة الفرنسية معا ، وجميع معاجمنا ثلاثية اللغات ولنا الامل ان نرفعها الى خمس لغات حين نضيف عليها الروسية والالمانية .

٥ ـ الاعمال العلمية التي قام بها اساتذة الجامعات في سوريا العراق ومصر ، وسجلت في مؤلفات قيمة جدا ،هي موضع تقدير

العرب والاجانب على حد سواء .

٦ ـ الاف المصطلحات العلمية التي وضعتها المجامع اللغوية والعلمية في القاهرة ودمشق وبغداد . ومجلاتها القيمة شاهدةبذلك، بل ان في بعضها تحقيقات علمية جديدة تصحح كثيرا من المفاهيم السائدة في الغرب .

واما قول بعضهم بأن العلوم العصرية يدخل عليها في كل يوم نحو خمسين مصطلحا جديدا ، وبأن التطور يخلق كل يوم علما لا تعرفه اللغة العربية ، فالجواب عليه : بأننا استطعنا في مكتبنا ـ على ضعفه وفقره ـ ان نجابه هذا الوضع ،ونجحنا فيه الى حد بعيد جدا، ولو فسح لنا في العمل كما نشاء ، ورفعت من طريقنا العقبات وازيحت المثبطات لادينا خدمات اكبر ، ولساعدنا بمجهودنا المتواضع المجامع اللغوية التي لم تقصر هي كذلك في الترجمةوالتعريب ولولا الروتين الدائر ، وحكمة الشيوخ المتأنية ، ومحاولة تحري اكبر ما يمكن من دقة ، لماشت جميعها تسارع العصر الحاضر .

ايها السادة :

كنا وما زلنا ننقل عن الغرب ترجمة وتعريبا بصورة شخصية فردية ، يشعر احدنا بالحاجة الى الترجمة فيقوم بواجبه وحده مستهديا بهدي ضميره ، وقد يقع ان يترجم المصطلح العلمي عالم عربي اخر او استاذ في جامعة ، فينشأ للمصطلح العلمي الواحد ترجمتان او اكثر . وتنشأ مع هذه الفوضى لهجات علمية جديدة تشبه ما نحن فيه وافعون من اللهجات العامية المتباينة . ومن هناكانت الدعوة الملحة التي يقوم بها مكتب تنسيق التعريب في الوطنالعربي لتوحيد هذه المصطلحات وبسببها اقيم مؤتمر الجزائر ، ومن أجلها استدعيت الندوة العلمية هذا الصيف . وقد اخذت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم خدمة هذه الفكرة على عاتقها وستدعو الى مؤتمرات كل عامين ، لتوحيد ما يجمعه مكتب تنسيق التعريب ، ونستطيع ان نطمئن بعد الان ،الى ان المصطلح العلمي قد اخذ سمته وعرف طريقه ، وسيكون للامة العربية كلها مصطلح موحد مقابل المصطلح الاجنبي .

لقد اكدت ـ ياسادتي ـ على المصطلح العلمي كثيرا واهملت ما سواه ، فما شأن التراجم الاخرى يا ترى ؟ وهل اذا كان عصرنا عصر علم وتقنيات ، يجب ان ينصب اهتمامنا عليها وحدها ، وان نهمل ما عداها ؟ كلا ، فالادب والفن شأنهما هين جدا اذا قيسا بالعلم ، ولقد اكثرنا من ترجمة الروايات والقصصوالمسرحيات ونشرنا على العالم العربي كميات هائلة جدا من آثار ادباء العالم الكبار من كل لغة ، بل بلغنا فيها حد التخمة ، ودخل علينا بسبب ذلك كثير من الكتب التافهة واللااخلاقية والمؤذية . ونحن لا نستطيع، ان نغل أقلام الكتاب والصحفيين والمنشئين والقصاصين والشعراء ونحصر حق الترجمة بهيئة معينة ـ حكومية او غير حكومية ـ كما تفعل بعض الدول التي تلغي حرية الفكر ، ولا ندعو الى ذلك ، ولكننا نستطيع ان نجابه المشكلة بأسلوب اخر ، يفسح المجال للمنافسة ويمنح الحرية للجميع بلا حدود ،وهو ان نؤسس هيئة عليا للترجمة في كل قطر عربي ونربط بينها بصلات وثيقة ونطلق يدها في اختيار ما يجب ان يترجم فيما بينها ، لكي لا تتعدد ترجمات الكتاب الواحد ، وتقوم هي بالترجمة او تكلف من ترى فيه القدرة علىالقيام بهذا العمل ، وتنشر اعمالها مطبوعة طبعا انيقا متقنا ، وتعرضه في السوق رخيصا ، يجتذب القراء نحوها فيميلون الى الاصلح ويهملون ما عداه .

ولو رجعنا الى تاريخنا القريب لوجدنا شبيها بهذه الفكرةالتي املتها الحاجة الى الذوق الرفيع والايمان بقيمة ما يجب انيقدم الى القارىء العربي من زاد فكري سليم .

ففي زمن محمد علي كانت هناك هيئة عليا للترجمة ، ولعل الطهطاوي اول من ساهم في تقويتها وتدعيمها ، ثم ضعفت بعده وتضاءلت بعد احتلال الانكليز مصر ، ثم أمحت نهائيا .

وتأسست في مصر بعد الحرب الكونية الاولى لجنة غير حكومية اطلقت على نفسها أسم :« لجنة التأليف والترجمة والنشر » . من اشهر اعضائها : طه حسين واحمد امين واحمد زكي وعبد الوهاب عزام واحمد حسن الزيات واسماعيل مظهر .. ونشرت انتاجها الادبي والعلمي فحازت ثقة القارىء العربي بدقتها واتقانها وحسن تخيرها للموضوعات المترجمة والمؤلفة .

وتأسست في سوريا حول عام ١٩٢٤ عصبة الادب ، تحمل الفكرة نفسها ، من اعضائها عمر ابو ريشة ، وسامي الكيالي واورخان ميسر وممدوح حقي ، ونشرت من اثارها كتابة الكشاف وديوان ابي ريشه والغريزة الجنسية ، ثم ادركها ما ادرك لجنة التأليف والترجمة المصرية .

وقامت في دمشق قبيل الحرب الثانية جماعة التحصيل العالي ونشرت مبادئها وهي لا تخرج عن مبادىء عصبة الادب كثيرا ، فقضت عليها قوانين الحرب سريعا ولم تنجز عملا ذا قيمة .

وقام بعض الشباب الجامعيين في مصر بتأليف لجنة لترجمة الموسوعة الاسلامية ، وها قد مضى عليها نحو اربعين عاما ولم تترجم نصفها بينما أعيد طبعها في اوروبا للمرة الثانية منقحة مزيدة موضحة .

وظهرت في العراق محاولة شبيهة بها دعا اليها الشاعر الرصافي ، ولكنها لم تنجح ،وجدد الدكتور داود الجلبي الدعوة ، فأخفق .

واقيمت في الاردن لجنة حكومية للتعريب والترجمة والنشر ،وما زالت نشيطة تعمل ، وصلتها بمكتبنا وثيقة جدا .

وكذلك فعلت الحكومة السورية ، واكثر منشوراتها علمية قيمة، ومثلها سلكت حكومة الكويت ، لكن اكثر منشوراتها ادبية .

ولم يظهر في الجزيرة العربية كلها ، ولا في الشمال العربي الافريقي حتى اليوم ما يشبه هذه الهيئات ، كل ما هنالك اعمال فردية او حكومية تنشر اعمالها من دون تخطيط ثم تضمحل .

وأراني اقف احتراما واجلالا لعمل المجامع اللغوية الثلاثة :مجمع القاهرة ومجمع دمشق ومجمع بغداد ، وللجامعات العربية وبخاصة منها جامعة دمشق التي باشرت تدريسها بعيد الحرب الكونية الاولى باللغة العربية ، وما زالت مستمرة على ذلك حتى اليوم ، وترك كبار اساتذتها اثارا علمية جديرة بالتقدير ، نذكر منهم : القنواتي والخياط وخاطر والكواكبي والقباني وحسني سبح ، وهو الان رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق ، ومع انه قد بلغ من العمر ما ينبغي لمثله ان يستريح فيه ، لكنه ما زال دائبا على التأليف والترجمة ، واخر اثر له : نقد وتصحيح لمعجم كلير فيل الطبي الفرنسي .

واذا كنا نقدر المجامع اللغوية والجامعات العربية اجمالا ، فيجب الا ننسى عمل المؤتمرات العلمية المتمادية منذ نحو ثلثقرن ، كالمؤتمرات الطبية والصيدلية والهندسية والقانونية والاقتصادية والمالية .. وسواها . تتناوب اجتماعاتها في مختلف العواصم العربية ويشهد كل عام عددا منها تسجل اعماله في ضبوطها ، ويفيد منه العلماء والمتخصصون بعد ذلك . ونحن في مكتبنا افدنا منهذه المؤتمرات وصححنا كثيرا من المفاهيم والترجمات على ضوء بحوثها ومناقشاتها وتقاريرها وتوصياتها .

وتمخضت الحرب العالمية الثانية عن احداث جسام ، هزت العالم العربي هزا عنيفا ، ودست في جنبه خنجرا مسموما هو ما يطلقون عليه اسم اسرائيل وتبلبلت الافكار وولدت احزاب متعددة تحمل مبادىء متباينة تتفاوت ما بين اقصى اليمين الى اقصى اليسار،

وظهـرت في الشرق الادنى على اثر ذلك ، كتب يساريـة بعضها معتدل وبعضها متطرف ، وترجمت جميع اثار ماركس وهيغل ولينين وماو .. تؤيدهـا وتساعد على نشرهـا دولة شرقية كبيرة ..

وظهر مقابلها في لبنان وفي مصر كتب يمينية عليهـا مسحة ادبية ما بيـن قصص ومسرحيـات وتاريخ شخصيـات وشعر .. تؤيدهـا وتنشرهـا هيئة موكلـة عن حكومة غربية كبيرة كذلـك ..

وتصارعت الاراء وتشوش الفكر العربي وتحير الجيل الناشيء كيف يقرأ ؟ ولمن يقرأ ؟ .. وتنبهت جامعـة الدول العربيـة الى هذا الوضع الشاذ ، فانشأت فيهـا مكتبـا اسمته : « الادارة الثقافية » وكلفتـه بدرس النشاط الفكري العربي وتوجيهه توجيها عروبيا حسنا ما امكن.

ومـا زالت الفكرة تتطور تطورا مستمرا حتى خلقت المنظمة العربية للتربيـة والثقافة والعلوم ، وضمت اليها : الادارة الثقافية ،ومكتب تنسيق التعريب ، وجهاز محـو الامية ، ومعهـد الابحاث والدراسـات العربيـة ومعهـد المخطوطات .. واخذت تعقـد الاجتمـاع تلو الاجتماع لبحـث موضوعات فكرية وعروبيـة شتى ، وتضع تقاريرهـا وتقـدم توصياتهـا .

ولما عقدت حلقة الترجمة في الكويت اواخـر العـام الفـائت ، نوقشت حركة الترجمـة مناقشة صريحة جدا ، وتقدم كثير من ممثلي الحكومـات العربيه بآراء قيمة ، ولكنهـا جميعـا لـم تنظـر الى ترجمه المصطلحات العلميـة ،التي هي اساس التطور المعاصر ، وكأنهـا تركت الامر لمكتب تنسيق التعريب المتخصص الوحيد في الوطن العربي بهـذا الموضوع . والمكتب وحده لا يستطيع عمل شيء اذا لـم يقف العلمـاء العرب الى جانبه يمدونه بالعون . والمساعدة التـي نتطلبهـا تتلخص فيمـا يلـي :

١ ــ ان تتكـون في كل قطر عربي كتلة من العلمـاء والاساتـذة الجامعيين يتابعـون التطور العلمي ويمدوننا بما استحدث من مصطلحات جديدة بأي لغـة ، وبمـا يقترحون لهـا من ترجمة ملائمة .

٢ ــ ونحـن نتلقى من كل قطر ما يبعث به، ونسقه مـع ما يأتي من الاقطار الاخرى ، ونضع فيه مشروع معجم ننشره على العلماء لنتلقى اراءهـم فيه نقدا واصلاحـا ونسجل ذلك كله ، وننقح مشروعنا بالقدر المستطاع ، ثم نعقـد ندوة من كبار المتخصصين من كل قطر لدراسته، حتى اذا اشبعوه بحثا وتحقيقا وتصحيحا ، اعدنـا تنسيقه من جديد ، وعرضناه على المؤتمر العربي الكبير ليكتسب شرعيته .

٣ ــ وبعد موافقـة المؤتمر عليه ، يصبح معجما شرعيا ، نطبعـه طبعـا انيقـا صحيحـا ونقدمه الى العالم العربي لتطبق مصطلحاتـه الموحـدة فـي جميع الاقطار على السواء .

لكن هل انتهت مهمتنا عند هذا الحد ؟ كلا ، لان العلوم في تطور مستمر ، ويدخل عليهـا في كل يوم نحـو خمسين مصطلحا ، فعلينا متابعـة هذا التطور وملاحقـة مـا يستجد يوميـا وتسجيله واعـادة البحث فيه وتوحيـد ترجمته باستمرار وادخاله في المعجـم الجديـد بالطريقة نفسهـا التي صنع بهـا المعجم المتقدم .

تلك هي احدى الصعاب التي تعانيهـا ترجمـة المصطلحـات العلميـة ، وهي عقبة يسهل تجاوزها بالدأب والايمـان . وهناك عقبات اخرى كثيرة نسرد بعضها فيمـا يلي :

١ ــ لا شك ان كثيرا من العلوم المعاصرة لم يكـن العرب يعرفون عنهـا شيئا ، بل حتى الامم المتمدنة الحديثة لم تكـن تعرفها قبـل ولادتهـا ، ومع كل علم مصطلحات جديدة ، فكيف نضع لهـا مقابلاتها، وليس في معاجمنـا لهـا شبيه ؟ من أيـن نأتي بالراديـو والتلفزيون والهيغرومتر والجيوفيزيا والجيومورفولوجيا والبتروغرافـ والستراتيغراف ... وما ماثلهـا ، وهي تعـد بمئـات الالاف ، ولم يكـن احـد فـي الكون يعرفها قبل خلقها في العصر الحاضر ، واحـرى الا يعرفهـا العرب ، والا توجـد في معاجمنا حتما .

هناك طريقتان رئيسيتان نتبعهمـا دائمـا في صياغة المعاجـم، احداهما الترجمة والثانية التعريب . فاذا لم نوفق بالترجمة الصحيحة الى مصطلح من كلمـة واحدة ،وضعنـا اثنتيـن ، اما بطريق الاضافة كقولنـا لكلمـة amenophilous هـوائي التلقيح ،او بطريق الوصف كقولنـا لكلمـة amenophilous ساق شاذة . وحين نعجز عن الترجمة الصحيحة نعربه تعريبا ،وهو بأن نقربه من وزن صرفي معروف فنقول للتلفزيون مثلا «تلفاز» على وزن فعلال ونكلمة machine مكينـة على وزن فعيله ، ونشتق منهـا بعد ذلك ما نشاء فنقول : تلفـز يتلفز متلفز .. .. الخ .واذا عمر علينـا وضعه في وزن صرفي اخذناه كمـا هـو فقلنـا : رادار radar وكروماتيد chromatid وكيون ... ثم نشتق منها مـا يمكن ، فنقول مثلا من كيون : كون يكوتن مكوتن مكوتـن cutinised ... واذا لـم يسعفنا الاشتقاق ، عدنـا الى الترجمـة الجملية .

٢ ــ وقليلا ما نلجأ الى النحت فنقول : برمـائي مثلا قياسا على ما قاله العرب : عبشمي من عبدشمس ، وحضرمي مـن حضرموت ، وعبدلي من عبدالله ، وحمدل من الحمد لله .. ولكنا نخشى ان نفتح الباب على مصراعيه فندخل علينـا تراكيب مستثقلـة نحـن في غنى عن اختصارهـا بهذا النحت المستهجن ، ولا يدفعنـا اليهـا الا حـب التقليـد والمحاكاة .

٣ ــ وتنشأ امامنـا صعوبة جديدة هي المترادفات . فاللغة العربية من اغنى لغات العالم بالمترادف ــ وان كنـا لا نؤمن بالمترادف المطلـق على اطلاقه ــ لكن كثرة هذا الترادف ، ان اغنى لغـة الادب والشعر، فقـد يخلق في العلوم فوضى ويسبب بلبلة ، ان اهم مـا ينبغي للعلم هـو دقـة التعبير ، بحيث اذا لفظنـا المصطلح لا ينصرف الى سـواه، ولو بالتشبيه ، والمترادف لا دقـة علميـة فيه ، فكيف نقول في الالفاظ التاليـة مثـلا :

Calamiduos : غلافي أم غمدي ؟

Chromosome deficirency : نقص صبغي ام قصر صبغي ؟

Curved : منحن أم مقوس ام ملتو ام معوج ؟

Dormante stage : طور السكون ام طـور السبات ام النعاس ام النوم ام الرقاد ؟

Energy Liberation : تحرير الطاقة ام اطلاق الطاقة ؟

Early flowter : زهرة مبكار ام بكـور ام معجال ام عجول ام متبادرة أم بادرة ؟

Paleobotany : علم الحفريات النباتية ام الاحافير ام المتحجرات ام علم الاحاثة ؟

Herbivor : نباتي أم عاشب ؟

Fragile : هش ام قصف ام كسور ام عطوب ام هشوم ؟ وماذا نعطي لكلمتي : Ecrasable - Cassant

Frogment : كسرة ام فتيتة ام قطعـة ام جـزء ام شظيـة ؟

Hibernation : بيات شتوي ام خمود ام رقـاد ام سبات ام نـوم ؟

ومثل ذلك كثير جدا وانما مثلت بهذا العدد القليل لتقريب الفكرة، علـى اننـا قد نفيـد احيانا من بعض المترادفات ، وبخاصة اذا كانت تشيـر الى وصف معين ، فنحددهـا تحديدا استعماليا جديدا يضعها في مكانهـا من التعامل العلمي ، وبهذا نحاول التفريق بين : السيولـة والميوعة . اللدونة والليونة والمرونة . السدّ والسدّ . الافراز والابراز والاخراج . العمومي والعام ..الخ ، ومثل هذا عدد وفير ، لكن من هو صاحب الحق الشرعي في ضع ذلك كله وتحديده ؟.

٤ ـ ومشكلة الوحدات والمقاييس والرموز والارقام الحسابية والجبرية لم تحل بعد .

كان اجدادنا يعرفون القمحة والدرهم للوزن الخفيف الثمين كالذهب والفضة والحجارة الكريمة . ويعرفون الاوقية والرطل والقنطار للوزن الثقيل ، ويعرفون الذراع والباع والمرحلة والميل للاطوال والمسافات ، ويعرفون الصاع والمد والغرارة للكيل .. لكن كل هذه الوحدات والمقاييس غير دقيقة ، فما وزن القمحة مثلا، وما عرض الشعرة وكم هي الاوقية والرطل ؟ وما طول الذراع والميل ؟ وماالفرق بين الذراع الهاشمي والذراع العادي ؟.. الخ.

كان كل بلد يستخدم مقياسا خاصا به ، فالرطل في مصر مثلا صغير جدا اذا قيس برطل الشام الذي يزن ٨٠٠ درهم او رطل حلب الذي يزن ١٠٠٠ درهم . وتنسحب هذه الفوضى على كل مقاييسنا القديمة، فلما حل المقياس المتري محلها وانتشر في البلاد العربية المتقدمة ، تقاربت المفاهيم ، لكن ما زالت هناك وحدات ومقاييس اخرى سواها ، ان لم تبلغ الالاف فهي حتما بضع مئات ،كيف نحل مشكلتها؟ كوحدات الوقت والزمن والسرعة والشدة والشغل والعزم والتردد والمقاومة والكثافة وطول الموجة والانحراف والاحتكاك واللزوجة والصوت والاضاءة والالكترون والكهرباء .. فهذه كلها كيف نترجمها ؟.

٥ ـ ومشكلة الرموز الكيماوية والرياضية والفيزيائية والكهربائية والالكترونية وما شابهها كيف نجد طريقا لحلها .

٦ ـ واذا انتهينا من مشاكل الترجمة والتعريب ، نجد انفسنا في موقف اخر تجابهنا فيه الطبعة بالحرف المشكول والحرف العاري والحرف الراكب والحرف المسطح .. ومشاكل طباعية كثيرة بحثتها الندوة التي عقدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم واخر عام ١٩٧١ وانتهت منها الى توصيات نرجو لها حسن التطبيق لان الحرف هو الوسيلة التي تتشكل بها الكلمات للتفاهم بين الناس، فاذا كانت هناك صعاب طباعية قائمة ، تلكأ الحديث المتبادل ما بين العالم والمتعلم ، وتباطأ التفاهم وعسرت الاستفادة والافادة وخدمة الفكر .

٧ ـ يقولون : آن في اللغات الاوروبية سوابق ثابتة على الكلمة، ولواحق قارة تساعد على التصريف وتقليب المعاني .. وليس في العربية ما يشبهها ، ولذلك لا يمكن أن تكون وسيلة سهلة للعلم . ونسي هؤلاء الشعوبيون او تناسوا ان لكل لغة عبقريتها الخاصة في الصياغة والتصريف وابتداع الصور المختلفة للمعاني المتباينة واذا لم يكن للعربية هذه السوابق واللواحق فلديها مئات الاساليب الاشتقاقية مما يفتقر اليه سواها . وما قول هؤلاء الشعوبيين باللغات التي كانت ميتة فأحياها اهلها في برهة عقدين من السنين او ثلاثة ، وهي الان تتعامل اداريا وتدرس كل العلوم بلغتها القومية كالفيتنامية والكورية والعبرانية .. فهل تكون العربية اقل منها ؟.

واذا كانت هيئة الامم قد اعترفت بالعربية لغة خامسة في التعامل الدولي ، أفنكون اقل حماسة للغتنا من الغريب ؟.

٨ ـ تلك هي اهم مشاكل الترجمة تناولتها من الداخل ، واخرت عن عمد المشكلة الخارجية الكبرى لاركز عليها .

نحن نعمل ونجد ونترجم ونضع المعاجم ونوزعها على العالم العربي بقصد استخدامها والافادة منها ، فاذا بقي التعليم بلغة اجنبية، وبقيت الادارات تمارس اتصالاتها وانظمتها بلغة غير لغة الشعب، فما هي الفائدة من كل هذا العمل ؟ ولماذا اجتمعنا نحن هنا ؟الاجل ان ننظر في ترجمة شكسبير ودانته وغوته ولودفيغ وريلكه ولامارتين وكافكا .. ؟ دعوا الادب يسير في طريقه وحده فهو كفيل بالنهوض على قدميه من دون هذا التدخل ، ولنركز على الترجمة العلمية ،لننقل ما وصل اليه الغرب من علوم بها طغى علينا وحطمنا واستعمرنا، تعالوا نستعمل سلاحه نفسه لكي نعرف كيف ندافع عن انفسنا ونحمي كياننا وننطلق مع الحضارة الحديثه بكل كياتها . الشعوب الزراعية دائما في الدرجة الثانية ، والشعوب الصناعية دائما في الدرجة الاولى ،ان الشعب الذي لا يعرف كيف يدير الالة ويسخر الكهرباء ويطوع الالكترون ، ويقف عاجزا امام التقدم الحضاري ويستعير مظاهر المدنية استعارة ... شعب مقضي عليه بالجمود والتأخر .

ولا يعيبنا ان نأخذ العلم عن سوانا مهما كان شأنه ، نستفيد من الصديق والعدو ، ونسعى الى مبتكرات العلم في اقاصي الارض، او لم يأخذ الغرب عنا علومه وفلسفته حينما هم بالنهوض ؟. هم انفسهم قالوا بأن حضارتهم الحديثة مدينة للعرب . اسمعوا اقوال عظمائهم :

قال جورج سارتون مؤلف « تاريخ العالم » :« كان العرب اعظم معلمين في العالم ، زادوا على العلوم التي نقلوها عن غيرهم ، ولولا عملهم لتأخر سير المدنية قرونا عديدة » .

وقال نيكلسون : « ما المكتشفات اليوم بمحسوبة شيئا مذكورا ازاء ما نحن مدينون به للعرب الرواد الذين كانوا مشعلا وضاء ابان القرون الوسطى المظلمة في اوروبا » .

وقال اكثر مؤرخي العلم من الاجانب : « ان الحضارة الانسانية مدينة للعلماء العرب في كل فرع من فروع المعرفه وانه كان لا بد من ظهور ابن الهيثم والبيروني والكندي وامثالهم لكي يتسنى ظهور جاليلو وكيلو وكوبرنيق . وانه لولا اعمال العرب ، لاضطر علماء النهضة الاوروبية للبدء من حيث بدأ هؤلاء ، ولتأخر سير المدنية عدة قرون » .

وكذلك قال كليردوفو وسيد يوولز ونيو برجر ولكلرك مؤرخ الطب العربي وجرمان وبراترام وهومبولد وبيتر باخمان وغوستاف لوبون ... وكثير غيرهم .

قال عبدالحليم المنتصر رئيس اتحاد الجمعيات العلمية في العالم العربي تعليقا على ذلك : اذكر انني شاهدت في سقف مكتبة الكونكرس الامريكية ، منقوشا بماء الذهب : ان مصر هي الينبوع الاول للحضارات جميعا ، وان العصر العربي الاسلامي هو الينبوع الاول للعلوم الطبيعية فشعرت بالزهو ان أكون سليل هاتين الحضارتين ووريث هاتين الثقافتين .

وانا نفسي جمعت من المعجم الفرنسي وحده بضعة الاف كلمة عربيه ، أخذوا بعضها من اللغة الفصحى كالامبيق والغول والالفباء والابجدية والبرقوق والنكويم والطبيب ودار الصناعة .. واخذوا بعضه الاخر من العامية السائدة كالافندي والاغا والعيش وكلمة بزاف المغربية (وهي بمعنى كثير) . وتصرفوا ببعض الاسماء المشهورة تصرفا ليس فيه ذوق فقالوا افسين لابن سينا ، وآفروبس لابن رشد ،وسلادان لصلاح الدين . وابدل لعبدالله ، بينما حافظ العرب قديما على النطق الاصيل في الترجمه فقالوا : ارطماطيقا وفيزيقا وجيومطريقا .

ونحن في هذا العصر نقول : بتروغرافيا وستراتيغرافيا وتونا .. واذا لم يكن لبعض الحروف الاجنبية مقابل عربي مثل V.G.P. فانا نقربها بقدر الامكان من حرف شبيه ، ولهذا عدلنا عن اليصابات الى اليزابيت مثلا . وقد وضع المجمع اللغوي بعض القواعد لذلك ، نرجو ان تنتشر وتطبق . ولغتنا كربمة معطاءة تساعدنا على الترجمة الدقيقة ، والشعب الذي لا يستخدم لغته القومية في التعليم وفي الادارة ، شعب مستعبد ثقافيا لسواه ، وشهامتنا العربية تأبى لنا مذلة الجهل ، وديننا يأمرنا بالعلم وبالعمل :«هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟ والارض يرثها عباد الله الصالحون لاعمارها والحياة فيها . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » .